خُلُقُ الأَبرار
وشِيَمُ الأَطهار

الحلقة (6)
القناعة

من تجميع وتقديم / مكتبة خير أمة الإسلامية

خلق الأبرار وشيم الأطهار

الحلقة (٦)

القناعة

جمع وعداد / مكتبة خير أمة الإسلامية

يحكى أن ثلاثة رجال ساروا في طريق فعثروا على كنز، واتفقوا على تقسيمه بينهم بالتساوي، وقبل أن يقوموا بذلك أحسوا بالجوع الشديد، فأرسلوا أحدهم إلى المدينة ليحضر لهم طعامًا، وتواصوا بالكتمان، حتى لا يطمع فيه غيرهم، وفي أثناء ذهاب الرجل لإحضار الطعام حدثته نفسه بالتخلص من صاحبيه، وينفرد هو بالكنز وحده، فاشترى سمًّا ووضعه في الطعام، وفي الوقت نفسه، اتفق صاحباه على قتله عند عودته؛ ليقتسما الكنز فيما بينهما فقط، ولما عاد الرجل بالطعام المسموم قتله صاحباه، ثم جلسا يأكلان الطعام؛ فماتا من أثر السم.. وهكذا تكون نهاية الطامعين وعاقبة الطمع.

*أُهْدِيَتْ إلى السيدة عائشة -رضي اللَّه عنها- سلالا من عنب، فأخذت تتصدق بها على الفقراء والمساكين، وكانت جاريتها قد أخذت سلة من هذه السلال وأخفتها عنها، وفي المساء أحضرتها، فقالت لها السيدة عائشة -رضي اللَّه عنها-: ما هذا؟ فأجابت الجارية: ادخرتُه لنأكله. فقالت السيدة عائشة -رضي اللَّه عنها-: أما يكفي عنقود أو عنقودان؟

*ذهب الصحابي الجليل حكيم بن حزام إلى النبي صلى اللَّه عليه وسلم وسأله أن يعطيه من الأموال، فأعطاه. ثم سأله مرة ثانية، فأعطاه. ثم سأله مرة ثالثة، فأعطاه النبي صلى اللَّه عليه وسلم. ثم قال له مُعلِّمًا: (يا حكيم، إن هذا المال خَضِرٌ حلو (أي أن الإنسان يميل إلى المال كما يميل إلى الفاكهة الحلوة اللذيذة)، فمن أخذه بسخاوة نفس (بغير سؤال ولا طمع) بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبَارَكْ له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا (التي تعطي) خير من اليد السفلي (التي تأخذ). [متفق عليه].

فعاهد حكيم النبي صلى اللَّه عليه وسلم ألا يأخذ شيئًا من أحد أبدًا حتى يفارق الدنيا. فكان أبو بكر الصديق -رضي اللَّه عنه- يطلبه ليعطيه نصيبه من المال، فيرفض أن يقبل منه شيئًا، وعندما تولى عمر -رضي اللَّه عنه- الخلافة دعاه ليعطيه فرفض حكيم، فقال عمر: يا معشر المسلمين، أشهدكم على حكيم أني أعرض عليه حقه الذي قسمه اللَّه له في هذا الفيء (الغنيمة)، فيأبى أن يقبله.

وهكذا ظلَّ حكيم قانعًا، لا يتطلع إلى المال بعد نصيحة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، التي تعلَّم منها ألا يسأل أحداً شيئًا؛ حتى إنه كان يتنازل عن حقه، ويعيش من عمله وجهده.

*كان سلمان الفارسي -رضي اللَّه عنه- واليا على إحدى المدن، وكان راتبه خمسة آلاف درهم يتصدق بها جميعًا، وكان يشتري خوصًا بدرهم، فيصنع به آنية فيبيعها بثلاثة دراهم؛ فيتصدق بدرهم، ويشتري طعامًا لأهله بدرهم، ودرهم يبقيه ليشتري به خوصًا جديداً.

ما هي القناعة؟

القناعة هي الرضا بما قسم اللَّه، ولو كان قليلا، وهي عدم التطلع إلى ما في أيدي الآخرين، وهي علامة على صدق الإيمان. يقول الرسول صلى اللَّه عليه وسلم: (قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافًا، وقَنَّعه اللَّه بما آتاه) [مسلم].

قناعة الرسول صلى اللَّه عليه وسلم:

كان صلى اللَّه عليه وسلم يرضى بما عنده، ولا يسأل أحداً شيئًا، ولا يتطلع إلى ما عند غيره، فكان صلى اللَّه عليه وسلم يعمل بالتجارة في مال السيدة

خديجة -رضـي اللَّه عنها- فيربح كثيراً من غير أن يطمع في هذا المال، وكانت تُعْرَضُ عليه الأموال التي يغنمها المسلمون في المعارك، فلا يأخذ منها شيئًا، بل كان يوزعها على أصحابه.

وكان صـلى اللَّه عليه وسـلم ينام على الحصير، فرآه الصحابة وقد أثر الحصير في جنبه، فأرادوا أن يعدوا له فراشـًا لينًا يجلس عليه؛ فقال لهم: (ما لي وما للدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب اسـتظل تحت شـجرة، ثم راح وتركها).

[الترمذي وابن ماجه].

لا قناعة في فعل الخير:

المسـلم يقنع بما قسـم اللَّه له فيما يتعلق بالدنيا، أما في عمل الخير والأعمال الصالحة فإنه يحرص دائمًا على المزيد من الخيرات، مصـداقًا لقوله تعالى: {وتزودوا فإن خير الزاد التقوى} [البقرة: ١٩٧]. وقوله تعالى: {وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين} [آل عمران: ١٣٣].

فضل القناعة:

الإنسان القانع يحبه اللَّه ويحبه الناس، والقناعة تحقق للإنسان خيرًا عظيمًا في الدنيا والآخرة، ومن فضائل القناعة:

القناعة سـبب البركة: فهي كنز لا ينفد، وقد أخبرنا الرسـول صلى اللَّه عليه وسلم أنها أفضل الغنى، فقال: (ليس الغِنَى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس) [متفق عليه].

وقال اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: (من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافًى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا) [الترمذي وابن ماجه]. فالمسـلم عندما يشعر بالقناعة والرضا بما قسمه اللَّه له يكون غنيا عن الناس، عزيزًا بينهم، لا يذل لأحد منهم.

أما طمع المرء، ورغبته في الزيادة يجعله ذليلاً إلى الناس، فاقداً لعزته، قال اللَّه صـلى اللَّه عليه وسـلم: (وارْضَ بما قسم اللَّه لك تكن أغنى الناس)

[الترمذي وأحمد].

والإنسـان الطماع لا يشـبع أبداً، ويلح في سـؤال الناس، ولا يشعر ببركة في الرزق، قال اللَّه صلى اللَّه عليه وسـلم: (لا تُلْحِفُوا (تلحوا) في المسألة، فواللَّه لا يسألني أحد منكم شيئًا فتُخْرِجُ له مسألتُه مِنِّي شيئًا، وأنا له كاره، فيبارَكُ له فيما أعطيتُه) [مسلم والنسائي وأحمد].

وقال اللَّه صـلى اللَّه عليه وسلم: (اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة عن ظهر غنى، ومن يستعففْ يعِفَّهُ اللَّه، ومن يستغنِ يغْنِهِ اللَّه) [متفق عليه].

القناعة طريق الجنة: بين الرسـول صلى اللَّه عليه وسلم أن المسلم القانع الذي لا يسأل الناس ثوابُه الجنة، فقال: (من يكفل لي أن لا يسـأل الناس شـيئًا وأتكفل له بالجنة؟)، فقال ثوبان: أنا. فكان لا يسأل أحداً شيئًا. [أبو داود والترمذي وأحمد].

القناعة عزة للنفس: القناعة تجعل صاحبها حراً؛ فلا يتسلط عليه الآخرون، أما الطمع فيجعل صاحبه عبداً للآخرين. وقد قال الإمام علي -رضي اللَّه عنه -: الطمع رق مؤبد (عبودية دائمة).

وقال أحد الحكماء: من أراد أن يعيش حرًّا أيام حياته؛ فلا يســكن قلبَه الطمعُ. وقيل: عز من قنع، وذل من طمع. وقيل: العبيد ثلاثة: عبد رقّ، وعبد شهوة، وعبد طمع.

القناعة سبيل للراحة النفسية: المسلم القانع يعيش في راحة وأمن واطمئنان دائم، أما الطماع فإنه يعيش مهمومًا، ولا يســتقر على حال. وفي الحديث القدسي: (يابن آدم تفرغْ لعبادتي أملأ صدرك غِنًى، وأَسُدَّ فقرك. وإن لم تفعل، ملأتُ صدرك شُغْلا، ولم أسُدَّ فقرك) [ابن ماجه].

وقال أحد الحكماء: سرور الدنيا أن تقنع بما رُزِقْتَ، وغمها أن تغتم لما لم ترزق، وصدق القائل:

هــي القنــاعة لا تــرضى بهــا بــدلا

فيهــا النعيــم وفيهــا راحــة البــدنِ

انظــر لمــن ملـــك الدنيــا بأجمـــعـــها

هـــل راح منها بغيـــر القطـــن والكفـــنِ